التراث الإنساني
NYROUF

طبقات الشعراء

لمحمد بن سلام الجمحى

د. مصطفى مندور

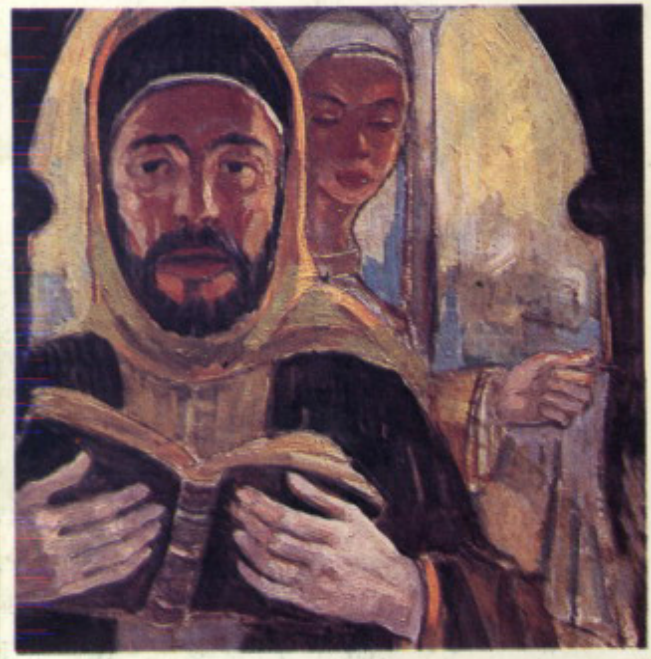

الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

طبقات الشعراء

لمحمد بن سلام الجمحى

د . مصطفى مندور

العرب والبيان الشـــعرى :

أما ان العرب منذ جاهليتهم يهتمون بالبيـــان عامة وبالشعر خاصة ، فتلك قضية لم تعد مجالاً للدفع . فلقد كانت لهم من ظروف حياتهم القبلية ما خلق لهم هذا الاهتمام حين وجدوا فى الاعتناء بالشعر والأخبار وأنباء القبائل ما ملأ أوقات مجالس سمرهم .

وكان لابد في هذا الجو الســـامرى أن ترتفع اللغة والأخبار الى مستوى الاشباع العاطفى والخيالى . ومن هنا أصبح تراثهم يرتكز الى ركيزتين : اللغة المثقفة ، وكان على كل من تعرض لقيادة المجلس أو المشاركة فيه أن يتعلمها ويلتقطها منذ يبدأ عقله فى الحياة القبلية بكل مستلزماتها .

ثم المضمون الذى تحمله هذه اللغة وما فيه من أنباء الأجداد وأبطالهم وأيامهم ، مفاخرهم وعلاقاتهم وأحسابهم .

هذا هو الجـــو الذى ترعرعت فيه الثقافة البيانية العربية . وان يكن من الضرورى أن نترك مجالا فى تصورنا لهذه الحياة لأنواع من العزلة متباينة المظاهر ، كانت تنشر راياتها على حياة القبائل والشعراء . ثم جاء الاسلام ومضت أعوام على انتصاره وبدأ الانصهار القبلى فى حومة الاحساس الجديد بالمهمة الجديدة . ولقد تفاوتت قوة موجات الرياح الحاملة لهذا الاحساس الى الأمام أو الملتوية به الى الخلف . ومهما كان مدى التطور الروحى والاجتماعى لقدمائنا العرب ، فقد ظلوا كغيرهم من الشعوب متعلقين بآدابهم ، وذلك بحكم أن هذه الفنون ترضى حاجاتهم النفســـية والروحية التى احتاجوا الى توكيدها أو نشرها .

ومنذ بداية معرفتنا بالتراث العربى القديم ونحن أمام غلبة الفن الشعرى ، وقد تضم اليه نماذج أخرى من الخطابة أو المقطوعات المسجعة كالأمثال والحكم وسجع الكهان . وحتى تواريخهم وأيامهـــم كانت تطعم بهذه الألوان من التعبير ، والكثير مما تركوه يحمل لنا تعبيرا عن حالات نفسية عاشوها ، وأصداء من حياتهم القبلية بكل قيمتها . واذا كان من الحق أن الاسلام سيفرض نوعا من الصمت والنسيان على الكثير مما قيل فيما قبل نزوله أو فى صدر

حياته ، فمن الحق كذلك أن انتقال جل ذلك التراث ، حتى بعد قرن من الزمان ، عن طريق الرواية الشفوية ، يؤكد ـ رغم ما فيه من أخطار ـ تعلقهم واعتزازهم بما خلفه أجدادهم ، فلم يكن فى قدرة العرب أن يروا كل ذلك الا أن شغفت قلوبهم به ، وسواء أخذنا بالرأى الذى ينزع الى اعتبار الأدب ـ والفن عامة ـ وسيلة للتخفيف عن نفس الأديب الخالق ، وعن نفس الأديب المتذوق ، أم آثرنا الميل الى اعتبار الخلق الفنى تعبيرا عن تجربة يعيشها الأديب بقلبه أو بخياله ، ثم ينقلها من حيز اللاوعى المبهم الى حيز الوعى النابض حين ينفث فيها الحياة ، فلا شك أنه فى كلتا الحالتين السابقتين نستطيع أن نلمح فى جلاء وافصاح أثر العمل الفنى على النفس البشرية ، ولقد نشطت منذ زمن بعيد أبحاث عدة لاماطة اللثام عن صلة الفنان بعمله . وفى مجال الأدب ، يقف البحث أمام اللغة ، لأنها هى وسيلة التعبير وقناته . ومنذ الفجر القديم واللغة مرتبطة بالسحر حين اعتبرت القوة الأولى لاثارة قوى السحر والغيب ، اذ لم يكن فى استطاعة الساحر أن يقيد مسحورا أو يدفعه الى أى درب من دروب الحياة الا أن قيد اسمه (اللغوى) ونسبه وأوصافه بألفاظ منطوقة أو مكتوبة . واتخذ هذا الطابع الغيبى شكلا جديدا مع أساطير اليونان عن آلهة الشعر وربابته التى تمنح الالهام والوحى والقدرة على الانطلاق واتخذ أيضا شكلا جديدا مع أساطير العرب فى أن لكل شاعر شيطانا يلهمه ويوحى له . وما الأسطورتان

الا تعبير عن القوى « غير الانسانية » التي خيل للانسان أنها مسيطرة على الابداع الفني ومحركة لهذه القوالب التركيبية المفارقة لمألوف الناس من البيان .

واحتفظ الشعر لنفسه بهذه القوى التي المسنا بها ، قوى التعبير عما يثير النفس ، وما يحرك انفعالها . قوى تحمل المعتقدات والآمال وتنثر الآلام . وكان لابد أن تبدأ مرحلة تجميع هذه الأشعار . وبدأت كتب الأخبار والسير والمغازي تسجل بعض هذه الأشعار ، ثم جاء جيل العلماء أمثال أبي عمرو بن العلاء ، وحماد الراوية والأصمعي وغيرهم . وبدأوا مرحلة عامة تعنى بشعر القبائل أو ببعض المنتخبات . وهنا اتجاه العناية بالمختارات القائم على الذوق المنتقد ، باختيار بعض من أخبار الشعراء وفي هذا الاتجاه الأخير امتزج النقد بتاريخ الأدب . وتشتبك الآراء اشتباكا عريضا حول مراحل تدوين التراث العربي ، ويستطيع من أراد تتبع هذا الاشتباك أن يجد عنه عرضين طيبين في كتاب – تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان (وقد ترجمه الدكتور عبد الحليم النجار) – وكتاب مصادر الشعر الجاهلي – للدكتور ناصر الدين الأسد .

•

وكتاب « طبقات الشعراء » لمحمد بن سلام هو أحد هذه النماذج المنتخبة التي يختلط فيها المنهج النقدي بالمنهج التاريخي ، والتي تمثل مرحلة مبكرة في تاريخ أدبنا العربي .

محمد بن سلام :

واذا كان لابد فى بحثنا هذا أن نعرف بصاحب كتاب « طبقات الشعراء » فهو أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى ، أحد أعلام البصرة الذين ولدوا فيها عام ١٣٩ هـ ـ وعاش كالكثيرين من رجال عصره متنقلا بين المراكز الثقافية المختلفة حتى مات سنة ٢٣١ هـ ـ ٨٤٥ م ومن المصادر ما يجعل عام وفاته ٢٣٢ هـ .

ولد أبو عبد الله محمد فى بيت علم ، فأبوه سلام ابن عبد الله ممن روى عنهم عالمنا فى كتابه ، وأخوه عبد الرحمن بن سلام أحد رواة الحديث الذين روى عنهم مسلم وأبو حاتم ، ووثقه ابن حبان . وكما عرف أبو عبد الله محمد العلم عن أبائه فقد خلف لأبنائه وأهله حب العلم وطلبه . فروى عنه ابن أخته أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى وهو ممن رووا النسخة التى تملكها اليوم من كتاب طبقات الشعراء .

أما عن تنشئة أبى عبد الله محمد بن سلام الجمحى فقد طال تردده على الشيوخ فى عصره ، سمع كبار الرواة والأخباريين والنحاة واللغويين : سمع الأصمعى والمفضل الضبى ، وخلفا الأحمر ، ويونس بن حبيب ، وأبا زيد الأنصارى ، وأبا عبيدة معمر بن المثنى وخلادا السدوسى

والمسيب بن سعيد ، وعشرات غيرهم . وحفظ الكثير مما سمع . وفى المقدمة الطيبة التى كتبها الأستاذ محمود محمد شاكر للطبعة الأخيرة من كتاب طبقات فحول الشعراء، جمع الأستاذ سبعين اسما من شيوخ أبى عبد الله محمد . وهذا التنوع فى مصادر معرفة ابن سلام جعل منه عالما ذا ثقافة متنوعة . أو موسوعية . جمع الكثير من الاتجاهات التى كانت شائعة حتى الربع الأول من القرن الثالث . واذا كانت رواية الأخبار والعناية بالشعر قد غلبتا عليه ، فابن النديم يحدثنا فى كتابه الفهرست أن ابن سلام ألف كتاب الفاصل فى ملح الأخبار والأشعار وكتاب بيوتات العرب ، وله كتاب غريب القرآن ، وكتاب طبقات العلماء الذى نقل منه أبو على القالى فى أماليه .

وكتاب طبقات الشعراء الذى نعتبره اليوم من تراث الانسانية ، يمثل صدرا ضخما من معارفنا الأدبية والنقدية المتعلقة بقديمنا . وسما الكتاب الى قمته بفضل عاملين واضحين : أما الأول منهما فهو ما ضمنه من آراء نقدية عرضها ابن سلام ، جامعا فيها الكثير مما كان شائعا حتى زمانه ، ومضيفا اليها ما ألهمه فكره الناقد الى حقيقة الفن الشعرى ، والذوق الأدبى الذى لا يخلو من الأصالة ، والثانى يأتى من أنه سجل ودون أخبارا أدبية أصبحت من بعده ملكا لمؤرخى الأدب والشعر . وفى حقيقة اعتماد أبى الفرج الأصفهانى ـ فحل أدباء ورواة القرن الرابع ، وصاحب أضخم منجم للأدب العربى على مؤلف ابن سلام ـ ما يزكى

الأهمية التى نالها وينالها كتاب طبقات الشعراء وما يتم على الثقة التى منحت له منذ ألفه صاحبه ٠

كتاب طبقات الشـــعراء :

كان أول من نشر الكتاب المستشرق الألمانى يوسف هل J. Hell فى ليدن عام ١٩١٦ ٠ ثم أعادت مطبعة السعادة نشره فى ١٩٢٠ وتعددت طبعاته ، وكلها يشوبها الكثير من الخلل والخلط حتى استطاع المحقق الأستاذ محمود شاكر أن ينشر الكتاب نشرة طيبة بوساطة دار المعارف فى عام ١٩٥٢ ٠ ومع أن هذه الطبعة قد سدت فراغات واســعة فى الكتاب ، واستكملت بعض أجزائه باعتمادها على مخطوطة أكثر كمالا ، وعلى ما صحت روايته عن الأصل القديم بوساطة كتب أخرى أخذت عنه ، الا أن عددا من المواضع مازال فى حاجة ماســة الى التحقيق العلمى ، ولعل المستقبل يكشف لنا من المخطوطات ما يسد هذا النقص ، حتى تتم معرفتنا بالصورة الأولى ــ أو القريبة منها ــ التى تركها ابن سلام لرواته ٠ وعلى هذه الطبعة الأخيرة نعتمد فى بحثنا هذا ٠

ومنذ ظهر هذا الكتاب مطبوعا وهو يثير نوعا من القلق فى نفس قارئه ودارسه على حد سواء ٠ ومصدر القلق أن أقسام الكتاب تبدو غير مترابطة برباط منهجى ٠ ويمكن أن نجمع أسـباب هذا القلق فى النقاط الثـلاث الآتيـــة :

الأولى :

كتب ابن سلام فى مقدمته « ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين ، فنزلناهم منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة . وما قال فيه العلماء » (ص ٢١) هذا التحديد من ابن سلام يوحى بأن الكتاب سينهض على أقسام ثلاثة ، قسم للجاهليين وثان للاسلاميين والثالث للمخضرمين ، فان نحن فتشنا نسختنا لم نعثر على هيكل لهذا القسم الأخير ، وقد أثار هذا النقص المظهرى الشك فى نفس المستشرق « هل » وجاء المحقق محمود شاكر يبدد هذا الشك معتمدا على دليلين أحدهما مادى يستند الى نص ابن سلام يقول فيه « فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا . فألفنا من تشابه شعره منهم الى نظرائه فوجدناهم عشر طبقات ، أربعة رهط كل طبقة متكافئين متعادلين » (ص ٢٢) هذا التحديد العددى للشعراء الذين يقسمهم ابن سلام الى طبقتين كبيرتين . الجاهليين والاسلاميين ، يلقى ظلا ثقيلا على الشك المثار سابقا . ثم يضيف الأستاذ محمود شاكر استنتاجا فنيا يرجح هذا الاطمئنان (ص ٢٢) من مقدمة المحقق « ابن سلام لم يكن يعد المخضرمين طبقة قائمة بنفسها ، بل نزل المخضرمين منازلهم من طبقات الجاهلية وطبقات أهل الاسلام ، وألف من تشابه شعره منهم الى نظرائه . فمن أجل ذلك وضع المخضرمين حيث رأى من طبقة شعرهم عنده . اما فى طبقتهم من أهل الجاهلية ،

واما في طبقتهم من أهل الاسلام ، غير ناظر الى ترتيب تاريخ مولدهم أو تاريخ وفاتهم أو الى تقدم متقدم وتأخر متأخر » . وهذا يعني أن ابن سلام يضم الشاعر المخضرم الى نظيره الذي يرى تقاربا بين روحي شعرهما . وبالمثل يفعل ان رأى الشاعر أقرب الى روح أهل الاسلام . ويعبر الأستاذ شاكر عن هذه الفكرة بقول جامع « وهذا دليل على حسن بصر ابن سلام بالنقد . وجودة معرفته بالشعر ، ودليل على أنه نهج لكتابه نهجا يحتاج الى دراسة دقيقة متقنة يرجع فيها الى طريقته التي سلكها في وضع أربعة في طبقة ، وزعمه أنهم متكافئون معتدلون ، وهذا أمر يتطلب افاضة ليس هذا مكانها »

هاتان الفكرتان يقدمهما المحقق ، ويستند اليهما في نفي فكرة افراد ابن سلام طبقة خاصة للمخضرمين وتؤيد هاتين الفكرتين حقيقة أن المؤلف يذكر كثيرا من الشعراء الذين نعدهم مخضرمين بين صفوف طبقتيه الكبيرتين . فيذكر مثلا في شعراء الطبقة الثانية الجاهلية كعب بن زهير . وهو الذي أسلم أمام رسول الله وقال قصيدته الكبيرة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم اثرها لم يفـــد مكبـــول

وفي الطبقة الثالثة يذكر النابغة الجعدي الذي عاش طويلا في الجاهلية والاسلام ، بل ويذكر أنه كان علوى

الرأى ، ويذكر معه الشاعر الشماخ الذى رثى عمر ابن الخطاب ونفس هذا التوزيع نراه مع طبقات الاسلاميين . ففى الثالثة الاسلامية يذكر كعب بن جميل الشاعر القديم فى أول الاسلام ، ويذكر سحيم بن نوفل الشريف المشهور الأمر فى الجاهلية والاسلام .

ولعلنا نخلص من عرض هذه المناقشة الى نوع من الاطمئنان بالنسبة لهذه النقطة الأولى من نقاط الشك .

النقطة الثانية :

ان التوزيع الكمى للتراجم والأخبار بين الطبقات يتعرض لتفاوت شنيع . فبينما نجد مثلا بعض الطبقات تغطى عشرات الصفحات (كالأولى من الجاهلين أو الاسلاميين) نجد طبقات أخرى لا تكاد تغطى الا صفحة وجزءا من الثانية (كالطبقة السابعة من الجاهليين) بل ومن فحول هذه الطبقة من لا نكاد نجد عنه شيئا ، اللهم الا أن يكون مجرد اسم قصير كالشاعر أوس بن معزاء ، أحد شعراء الطبقة الثالثة من الاسلاميين ولسنا نستطيع تقديم أى تبرير لهذا الخلل الواضح الا أن يكون ابن سلام لم يكن قد استكمل هذه التراجم . ولم يحاول أحد من رواته ـ فى النسخ التى وصلتنا ـ استكمال ما فات المؤلف ، وقد يبدو ذلك الفرض بعيدا وهذا البعد نفسه يفرض فرضا آخر ، هو سقوط وضياع أجزاء من الكتاب الذى وصلنا (حتى اليوم) .

النقطة الثالثة :

اننا نلقى بين الطبقتين الكبيرتين : أهل الجاهلية وأهل الاسلام ، ثلاث طبقات لها طابعها الخاص ، فطبقة أصحاب المراثي وهى مرتبطة بفن شعرى معين هو شعر الرثاء . ولم يقدم له المؤلف ولم يشر الى أنه سيفرد لهذا الفن طبقة . ووجودها يثير عدة أسئلة : لم فضل الرثاء ؟ وأين الأغراض الشعرية الأخرى ؟

ثم طبقة شعراء القرى العربية : المدينة وشعراؤها خمسة ، وشعراء مكة وهم تسعة ، وشعراء الطائف وهم خمسة ، وشعراء البحرين وهم ثلاثة . ونفس هذا المنهج الذى يضم الشعراء تحت طبقة واحدة يخالف ما عهدناه فى بقية القسمين الكبيرين . يخالفها فى عدم اعتماده على الزمان كسبب للتقسيم ، وأحل مكانه عنصر المكان فى القرى المختلفة ويخالفها فى العدد الذى التزم به لكل طبقة فى جزئى كتابه الكبيرين .

وبعد هاتين الطبقتين تأتى طبقة شعراء يهود . وعددهم ثمانية ، وواضح أن قيما عقائدية جديدة تهيمن على المؤلف حين أفرد لهذا الفريق من الشعراء جزءا خاصا .

هذه نقاط ثلاث تثير النفس حول كمال الكتاب الذى وصلنا ، واذا كانت الافتراضات حول النقطتين الأوليين قد

تفرشان الأرض بشيء من عشب الاسترخاء ، فمازالت النقطة الثالثة متارجحة بين احتمالين : أن يكون ابن سلام قد أضافهما بعد أن رسم منهج كتابه أو أن تكون أيدى بعض النساخ قد أرادت استكمال ما وهمت أنه فات المؤلف . وفي كلتا الحالتين لا نملك - حتى يومنا هذا - ما يرجح أحد الاحتمالين .

تسمية الكتاب :

تجمع المصادر القديمة على أن ابن سلام اختار لكتابه اسم طبقات الشعراء وقد ذكر أقدم « كتالوج » تملكه المكتبة العربية القديمة ، ونعني به الفهرست لابن النديم الوراق ، أن ابن سلام ألف كتابا في طبقات الشعراء الجاهليين وكتابا في طبقات الشعراء الاسلاميين ، وان كان من اليسير تصور أن « كتابا » كانت تطلق على رؤوس الأبواب ، وفي ذلك ما ينفي خوف بعض النقاد والأدباء المعاصرين من أن يكون ابن النديم مشيرا الى كتابين متمايزين منفصلين . ومجرد النظر مثلا في صحيح البخاري الذي يستخدم لفظه كتاب ، بدلا من « باب » يؤكد هذا التفسير . وهذا أيضا ما يقول به محقق كتاب ابن سلام . وحين أخذ القدماء من كتابنا ما أخذوا ، ذكروه باسم « طبقات الشعراء » كذلك فعل الأصفهاني والسيوطي وغيرهما .

ثم لما أراد الأستاذ محمود شاكر نشر الكتاب وجد في

جملة ابن سلام التى قالها فى مقدمته « فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا .. » ووجد فى بعض المواضع عند أبى الفرج الأصفهانى مثل قوله وذكره ابن سلام فى الطبقة الخامسة من فحول الشعراء ما رجح عنده اختيار تسمية « طبقات فحول الشعراء » ولست أظن أن عوامل الترجيح هذه تكفى مطلقا للأخذ بهذا الرأى . فلفظة فحول المذكورة فى السياقين السابقين لا تحمل أية دلالة الا أن تكون صفة توضح نوع الاختيار أو الثناء على من اختارهم الجمحى . ولعلنا نستطيع أن نزيد على ذلك أن من بين الشعراء الذين يذكرهم صاحبنا شعراء لا يصلون الى مستوى الدرجة الثالثة التى كان الجاحظ يسمى الفرد منها شويعرا أو شعرورا . ولعلى كنت أؤثر للأستاذ المحقق ألا يميز طبعته بهذا الشعار الجديد ويحتفظ بالتسمية القديمة « طبقات الشعراء » .

مقدمة الكتاب :

فى مكتبتنا النقدية القديمة كتابان فرض نفوذهما بفضل المقدمتين اللتين سجل فيهما أصحابهما قضاياهم الأدبية والنقدية بالنسبة لوجهتى نظرهما فى الشعر القديم . الأقدم منهما هى مقدمة الجمحى لكتابه طبقات الشعراء ، والثانية هى ما كتبه معاصره محمد بن مسلم بن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء » ومع تعاصر الرجلين فهما يأخذان بوجهتى نظر مختلفتين ولا يعنينا الوقوف كثيرا أمام المقدمة الثانية .

أما ابن سلام فيحدد في مقدمة كتابه هدفه من عمله : انه أراد ذكر العرب وأشعارها ، والمشهورين من شعرائها وفرسانها وأيامها . وذلك ما كانت تتجه اليه عنايات الاخباريين من الأدباء . ثم أنه أراد كذلك أن ينتقي من الشعر الكثير الشائع على الألسنة ما فيه خير . والخير الذي يغض تعبير ابن سلام عنه نستطيع أن نراه فيما تحققت له قيمتان ، كلتاهما ارتضته القيم البلاغية في أدبنا القديم :

١ — أن يكون في عربيته حجة ، وهذا يعني أن يكون في صياغته البيانية ما يحتج به النحويون ويجدون فيه شواهد للقواعد أو لتفسير القرآن الكريم .

٢ — أن يجد فيه القارئ أدبا يستفاد ، فيه معان تستخرج ، وأمثال تضرب . ثم يجد فيه ما يشبع رغبته الفنية من مديح رائع ، أو هجاء مقذع أو تحد معجب أو نسيب مستطرف .

ووجد ابن سلام أمامه مجموعات كثيرة من الأشعار والأخبار وكان لابد أن يختار من بين هذه المواد ما يتفق مع نظرته الى التراث الأدبي والى الفن الشعري . ولذلك يحدد ابن سلام اختياره بقوله « فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم ، ولا يستغني عن عمله ناظر في أمر العرب » . وفي هذه الفقرة يلتزم ابن سلام بأن يقصر

اختياره على الشائع بين الناس والضرورى للمهتمين بأخبار العرب وهو يعلم أن فى الشعر الشائع المسموع مفتعلا كثيرا، ولذلك فانه يقصر مصادره على العلماء الذين ثقفوا العلم ، وأصبحوا أهل العلم والرواية الصحيحة . وهو ينتصر لهؤلاء المتخصصين ، ويرى أن تكون آراؤهم أولى بالقبول مما تداوله الناس من كتاب الى كتاب أو مما ترويه الصحف والصحفيون . وهذا الموقف الذى يلتزم به ابن سلام يدفعنا الى استعراض موقفه من مصادره .

ابن سلام والمصادر :

الرواة : كانت رواية الشعر هى الوسيلة العامة لنقل الشعر من جيل الى جيل حتى جاء عصر التدوين وكان طبيعيا أن تتفاوت حدود أمانة الرواة فيما ينقلون . وقد تختلف أسباب تدخلهم فى النص كما سنرى فيما بعد . وأصبح الرواة طبقات وفق حدود الثقة والمعرفة التى يمتاز بها كل منهم . وجاء ابن سلام فحدد طبقة من بينهم يمنحها ثقته وهم الرواة العلماء والنص التالى يوضح هذا الاهتمام الذى عناه الجمحى ، قال ابن سلام : « فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها ، استقلت بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا فى الأشعار التى قيلت ، وليس يشكل على

أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون .. » (ص ٣٩ – ٤٠) وواضح في حديث ابن سلام تفرقته الجوهرية بين الرواة الذين يلتزموا الأمانة في أشعارهم . والعلماء من الرواة . وهم الذين اصطفاهم واعتبرهم « الرواة المصححين » .

تتوالى لفتاته المطمئنة الى هذا النفر من الرواة ، فهو يسخر من الذين يقبلون الشعر الذى تداوله الأقوام ولم يعرضوه على العلماء (ص ٦) . وهو يقول ان الشعر يعرفه أهل العلم به ، بل انه ليس لأحد اذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على ابطال شيء منه . وهذه الطبقة من العلماء التى عناها ابن سلام هى فئة أبى عمرو ابن العلاء وأبى عبيدة والأصمعى والمفضل الضبى : « وكان أبو عبيدة والأصمعى من أهل العلم وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة : المفضل بن محمد الضبى (ص ٢١) .

وموقف ابن سلام من خلف الأحمر يمثل نموذجا من اتجاهه نحو هذا النفر من العلماء . يصفه صاحبنا بقوله : « أجمع أصحابنا أنه كان أفرض الناس ببيت شعر ، وأصدقهم لسانا ، كنا لا نبالى اذا أخذنا عنه خبرا وأنشدنا شعرا ، أن نسمعه من صاحبه (ص .) وهذا لا شك يعرض لنا مدى الثقة التى كان يمنحها ابن سلام خلفا الأحمر فقد كان يرجع اليه ليصحح له ما اختلط من الروايات الشعرية (مثال ص ١٠٦) ولا يتردد أن يذكر ما يخطىء فيه خلف الخليل بن أحمد . وخلف ينال

ثقة ابن سلام بفضل عاملين يعرضهما : الأول منهما تثبت خلف مما يروى وصدقه وأمانته . والثانى القدرة التى يملكها والتى بناها بتخصصه ومداومة دراسته . فعنه يروى مؤلفنا ـ ابن سلام ـ أن قائلا قال لخلف « اذا سمعت أنا بالشعر استحسنته فما أبالى ما قلت فيه أنت وأصحابك قال له : اذا أخذت أنت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف انه ردىء هل ينفعك استحسانك له ؟ وما أروع تلك المقارنة التى عقدها خلف ، ان هذا الاحساس النقدى الدقيق الذى نلمسه عند خلف هو الذى نلمسه أيضا فى الخبر التالى . يقول ابن سلام « شهدت خلفا فقيل له : من أشعر الناس ؟ فقال : ما ينتهى هذا الى واحد يجتمع عليه كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب الناس وأجمل الناس » ان خلفا يخرج بحكمه النقدى هذا ، عن مألوف الكثير من الذين كانوا لا يترددون في اطلاق أحكامهم من كل قيد .

واذا كان ابن سلام يحدد موقفه واضحا من هذه الطبقة من الرواة العلماء فانه يحدد أيضا صورة لما كان شائعا من صنيع الضعفاء من الرواة :

١ ـ محمد بن اسحاق بن يسار ، فبالرغم من أن ابن سلام يراه من علماء الناس بالسير الا أنه ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه . وكان تخصصه فى رواية السير والأخبار مما سهل له وضع الأشعار المنتحلة

والموضوعة وسط أخباره فاذا سئل عن ذلك قال « لا علم لى بالشعر أوتى به فاحمله » ولكن ما كان ذلك ليعفيه من المسئولية فلم يكن ذلك عذرا (ص ٩) وحكم ابن سلام على محمد بن اسحاق لا ينطلق دون تطبيق ، فان ابن اسحاق « قد كتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود » ويطعن ابن سلام فيما نسب الى هؤلاء من أشعار لا تحفظ من الشعر الا بأنها كلام مؤلف معقود بقواف . ثم يترك هذا الطعن الشكلى فيتساءل : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين ؟ والله تبارك وتعالى يقول : « وانه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى » ويستمر ابن سلام ليثبت أن القرون الكثيرة التى مضت على هلاك عاد وثمود ما كانت لتسمح ببقاء شىء تصح نسبته اليهم . ويبلغ شكله مبلغه فى قوله معلقا على ما ينسبه ابن اسحاق ـ للشاعر أبى شعبان بن الحارث و « لسنا نعد ما يروى ابن اسحاق له ، ولا لغيره شعرا ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم » (ص ٢٠٦) .

هذا موقف ابن سلام من أحد كتاب السير والأخبار ، وهو موقف مرتبط أيضا باتجاهه العام نحو الشك فى قدرة هذا النوع من الرجال على تمحيص الأشعار . وذلك بحكم طبيعة ارتباط رواة السير بالطابع القصصى الملائم للمسامرة والمنادمة ولذلك يعلق ابن سلام على أبيات تنسب للشاعر لبيد بقوله « ولا اختلاف فى أن هذا مصنوع تكثر به

الأحاديث ويستعان به على السهر عنه الملوك: والملوك لا تستقصى » (ص ٥٠) .

٢ ـ راو ثان لابد من الوقوف أمام حكم ابن سلام عليه ، ونعنى به حمادا الراوية فمع اعتراف ابن سلام بأن حمادا كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها الا أنه يضيف « وكان غير موثوق به : كان ينحل شعر الرجل غيره . وينحله غير شعره ويزيد فى الأشعار » (ص ٤١) ويروى بعد ذلك ما سمعه من يونس بن حبيب « العجب لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر » (ص ٤١) وسواء صح شيء من هذه التهم ضد حماد ، أم أنها نبعت عن عصبية ابن سلام لرجال البصرة ، فالذى تسلمه لنا القضية أن مؤلف طبقات الشعراء عرف منذ ذلك الوقت البعيد كيف يتردد أمام بعض المصادر ويؤثر أخرى بثقته . وليس هناك من شك فى أن هذه الخطوة التى يسجلها ابن سلام تعتبر أهم خطوة عرفها نقدنا الأدبى القديم بعد تلك المرحلة المائجة من الروايات الشفوية التى اختلطت فيها الأشعار وارتبكت النصوص فيما أرسى صاحبنا الحجر الصلب لنقد النص ونسبته ، وتمييز الحقيقة حول قائله . ولعل هذه المشكلة التى لمسناها كانت المحرك الأساسى الذى هز احساسه النقدى نحو مشكلة نحل الشعر ووضعه .

قضية نحل الشعر :

تذهب الدراسة الحديثة الى أن العناية بالنقد الأدبى

كانت أسبق من العناية بتاريخ الأدب . مثال ذلك أن يبدأ الاهتمام أولا بقصيدة أو بقصائد تنشأ للغزل ، ويتجه الاهتمام بها وجهة نقدية للتفتيش عما فى القصيدة من معان ومظاهر جمال أو نقيض ذلك . ثم تأتى بعد هذه المرحلة مرحلة دراسة فن الغزل ، كتيار أدبى فى تاريخ الأدب . واذا كانت هذه النظرية تصـــدق حين نتجه بأفكارنا الى ما نسميه بالنقد المنهجى أو تاريخ الأدب المنهجى ـ أى القائم على أسس علمية تستقرىء التفصيلات ـ فلا نستطيع فى الوقت نفسه أن نحدث هذا الفصل بين تاريخ الأدب ونقده فى بداية عصور تدوين التراثين النقدى والتاريخى . وتتضح هذه الحقيقة كاملة فى كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام . فمن خلال نظرته الى تاريخ الأدب استطاع أن ينفذ الى موقفه فى النقد الأدبى الخاص بصحة النصوص .

نظر ابن سلام فوجد أنه لم يكن لأوائل العرب من الشعر الا الأبيات يقولها الرجل فى حادثة ، ثم قصـــدت القصائد وطول الشعر بعد تلك المرحلة ويقول المؤلف كان أول من قصد القصـــائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبى فى قتل أخيه كليب وائل (ص ٣٣) .

ويتتبع صاحبنا تنقل بيئات الشعر فيرى أنه كان فى الجاهلية فى ربيعـــة ومنهم المهلهل وهو خال امرىء القيس بن حجر والمرقشات وسعد بن مالك .. و .. و

ثم تحول الشعر في قيس ومنهم النابغة الذبياني ولبيد والنابغة الجعدي ... و ... (ص ٣٤) .

وتجمعت حصيلة كبيرة من الشعر عند العرب وصار الشعر ديوان علمهم ومنتهى حكمهم ، به يأخذون ، واليه يصيرون (ص ٢٢) بل وصار الشعر لما فيه من حقائق تاريخ العرب ، علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه (ص ٢٢)

ثم يجيء الاسلام فتحدث الهزة الكبرى في حياة العرب الجاهلين وحدثت أحداث جديدة في حياة الشعر فجاء الاسلام ، فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو الفرس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ، وانتهت مرحلة نشر الاسلام ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالانتصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير » (٢٢) .

ونتيجة لهذا الوضع المستند الى الرواية الشفوية فتحت ثغرة في هذا التراث الذي بدأوا يراجعونه « فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم » (٣٩ ـ ٤٠) .

وجاء الرواة وبحكم عملهم القائم على المناقشة والرغبة في التمييز زادوا في الأشعار التي قيلت (٤٠) .

ان هذا العرض الخاطف يكفي لننفذ مع ابن سلام الى حقيقة المشكلة التي أقلقت حياة نصوصنا القديمة وهي مشكلة نحل الشعر ووضعه ، وقد رأينا فيما سبق كيف أن تاريخ الأدب يمتزج بنقد النصوص ونستطيع أن نوجز عوامل شكه فيما يلي :

ان الأوائل لم يتركوا الا أبياتا محدودة ، ثم أراد الأحفاد من القبائل والعشائر زيادة ما ورثوه ، وساعدهم رواة على ذلك .

وأراد هؤلاء الرواة أيضا أشياء أخرى . ارضاء الملوك عند السمر والسهر فوضعوا لهم الأشعار وأرادوا الكسب بما يعرضون من أشعار ومن أوضح أمثلة ذلك ما يرويه ابن سلام عن ابن داود بن متمم بن نويره الذي قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي في الجلب والميرة . فأتاه أبو عبيدة وابن نوح العطاردي فسألاه عن شعر جده متمم ، وقاما له بحاجته وكفياه وما أراد كسبه فلما نقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لهما واذا كلام دون كلام متمم ، واذا هو يحتذي على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها . فلما توالى ذلك علما أنه يفتعله (ص ٤٠) .

ومع الرواة يأتي رجال السير والأخبار الذين لعبوا دورهم وكان في تشـــاغل العرب بالجهـــاد ـ في رأي ابن سلام ـ ما ساعد على ذلك الوضع الجديد ، وخاصة أنهم حين عادوا لماضيهم لم يجدوا كتابا ولا دواوين تحتفظ لهم بنصوصهم بعيدة من تدخل الأهواء وبعيدة عن الضياع « ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد بن الأبرص اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر .... ونرى أن غيرها قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر . وكانا أقدم الفحول . فلما قل كلامهما حمل عليهما حمل كثير » (٣٣) .

هذا هو الجو الذي وجد فيه ابن سلام الكثير من النصوص التي كانت شائعة في عصره وكان عليه أن يصطنع منهجا يشك به فيما تداولته الألسنة فوضع لنا أقدم دراسة منهجية حول صحة نسبة النصوص في شعرنا العربي القديم وهي من الأسس التي نهضت عليها دراسة الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي .

الصورة النقدية :

ان مهمة ابن سلام في تصنيف الشعراء الى طبقات تكشف عن أن المؤلف كان يتخذ لنفسه مقاييس نقدية حدد في ضوئها الطبقة التي يضع فيها الشاعر . كانت أحكام الناس المنتشرة مما دخل في اعتباره ، ثم كانت كثرة

الأغراض الشعرية التي أنشد فيها الشاعر ثم كانت كثرة القصائد الطيبة التي تروى عن الشاعر .

والى جوار هذه العوامل كان أيضـــا عنصر الزمان والمكان ، فقد قسمهم الى جاهليين واسلاميين ثم ذكر طبقات شعراء القرى . وبقى بعد ذلك عنصر الفن الشعرى الذى فى ضوئه كتب طبقة أصحاب المراثى .

ومع هذه المقاييس النقدية نستطيع أن نجد ـ الى جانب تاريخ الأدب ـ صورة لما كانت عليه الاتجاهـات النقدية حتى أوائل القرن الثالث للهجرة .

الاتجاه الأول :

وهو أقدمها زمانيا وكان يكتفى فى أحكامه النقدية بتقرير أفكار عامة دون تعليل أو تبرير كقولهم ان أشعر الجاهليين المرقش وأشعر أهل الاسلام كثير (ص ٤٤) أو مثل موقف عمر بن الخطاب الذى يقدم فيـه النابغـة الذبيانى على سائر الشعراء لأنه قال :

فلست بمستبق أخا لا تلمه
على شعث ، أى الرجال المهذب ؟

وأمثلة هذه الأحكام التى لا تخضع لمحاولات تبررها منتشرة فى طيـات الكتـاب وهى تمثل دون شك المرحلة الفطرية التى كان الانفعال بطاقة البيت أو الشـاعر هو الباعث الأساسى على اصدار الحكم .

الاتجاه الثاني :

وفيه بدأت بوادر تحليل الحكم النقدي ورده الى أسباب ترتبط بالنص أو بالشاعر فالذين قدموا امرأ القيس فعلوا ذلك لأنه سبق العرب الى أشياء ابتدعها استحسنها العرب واتبعته فيها الشعراء منها : استيقاف صحبه والبكاء في الديار ، ورقة النسيب .. وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى وقيد الأوابد وأجاد في التشبيه وفصل بين النسيب وبين المعنى (ص ٤٦) وكل فقرة من النص السابق توضح فكرة نقدية منها ما يتصل بنظام القصيدة حين ابتدأها أمرؤ القيس بالوقوف على الأطلال وحين ميز بين أجزائها ومنها ما يتصل بطابعه الشعرى الذى هو قريب المأخذ وتملكه القدرة على خلق التشبيهات التى لم يسبقه اليه سابق .

وفي خبر آخر يروى أن عمر بن الخطاب كان يقدم الشاعر زهيرا ، لأنه كان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل الا بما فيه (ص ٥٢) والناقد هنا يتجه الى نقد بناء شعر زهير ، اذ أنه لا يفضل ـ كغيره ـ الألفاظ الحوشية ثم يقف أيضا أمام مضمونه ، فهو صادق لا يمدح الرجل الا بما فيه .

الاتجاه الثالث :

وكان يذهب فيه فريق من النقاد الأدباء الى معالجة صياغة القصيدة وما فيها من أخطاء أو سرقات . فالنابغة

كان يقوى في شعره ، ويتحدث كذلك ابن سلام عن عيوب الشعر الأربعة : الزحاف والسناد والابطاء والاقواء (ص ٥٥) وما بعدهـــا ويخرج من هذا الاتجاه الى محاولات تعميم الأحكام : فالاقواء في شعر الأعراب كثير وهو فيمن دون الفحول من الشعراء أكثر (٥٩) كما أن أخطاء استعمال الألفاظ او التراكيب منثورة في الكتاب (أمثلة ص ٦٢ ، ٦٦ ، ٤٦٢) .

الاتجاه الرابع :

وفيه نلمس بوضـــوح بداية النقد المنهجي والنقد الفني ، فالشاعر عدي بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد (ص ١١٧) اذن نحن أمام محاولة تستهدف الكشف عن أثر البيئة في الشعر . وكما أثرت البيئة المدنية أثرت العلاقات القبلية أو الاجتماعية : قال ابن ســـلام « وبالطائف شعر ليس بالكثير ، وانما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج أو قوم يغيرون ويغار عليهم . والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا وذلك الذي قلل شـــعر عمان . وأهل الطائف في طرف مكان بعيد (ص ٢١٧) ثم يقول أيضا « وأشعار قريش فيها لين » فتشكل بعض الأشكال (ص ٢٠٤) . هذه أمثلة من بين أخرى ـ تفصح

عن بذور صالحة تنمو فيها الدراسات المنهجية وقد يكون منها ما يحتمل الرد ولكنها دون شك تمثل فجرا أبيض .

وأن يفرد ابن سلام طبقة لأصحاب المرائى ، هلا تمثل هذه الحقيقة اتجاها الى دراسة الفنون الشعرية المختلفة .. ؟

هذه اتجاهات أربعة أعتقد أن ابن سلام قد صب فيها ما كان شائعا فى عصره وان تفاوتت أهميتها بالنسبة له أو لمن بعده . وبقى الى جوارها أمثلة عديدة من الأحكام النقدية التى يمثل بعضها ذوق صاحبنا ويمثل البعض الآخر ذوق عصره وعلمائه ، وكلها تردنا الى ما قلنا عن أهمية منهج ابن سلام الذى يخلط فيه بين تاريخ الأدب وتاريخ النقد ، والنقد التطبيقى .

لقد استطاع ابن سلام أن يحتفظ بطابع الذوق العربى فى تناول النصوص ، ولم يخضعها لما كان شائعا من المعارف اليونانية ومعاييرها الفنية والنقدية . ومن هنا تزداد أهمية الكتاب لأنه يمثل الذوق الأدبى عند العرب وما فيه من عناية بالنصوص وتذوقها ، لقد كان ابن سلام يؤمن بأن للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم (ص ٦) وكان يؤمن بأن كثرة المدارسة لتعدى على العلم (ص ٨) ومن هاتين القيمتين : المثابرة والثقافة ثم طول الممارسة والدراية تتحدد خير الطرق لمعرفة الشعر ونقده .

نماذج من كتاب طبقات فحول الشعراء

(أ) من المقدمة

(لم التزم فى هذا الاختيار بتسلسل الصفحات كما طبع الكتاب ، وتدفعنى لذلك محاولة تنسيق بعض الموضوعات . والعناوين الموضحة من اقتراحى) .

هدف المؤلف ومنهجه :

ذكرنا العرب وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها ، اذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب ، وكذلك فرسانها وساداتها وأيامها ، فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم ، ولا يستغنى عن علمه ناظر فى أمر العرب ، فبدأنا بالشعر (ص ٥٠) .

ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والاسلام ، والمخضرمين فنزلناهم منازلهم ، واحتجنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة ، وما قال فيه العلماء .

وقد اختلف الناس والرواة فيهم ، فنظر قوم من أهل العلم بالشعر ، والنقاد فى كلام العرب ، والعلم بالعربية ،

اذا اختلف الرواة ، فقالوا بآرائهم ، وقالت العشائر بأهوائها ، ولا يقنع الناس مع ذلك الا الرواية عمن تقدم .

فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا ، فألفنا من تشابه شعره منهم الى نظرائه ، فوجدناهم عشر طبقات ، أربعة رهط كل طبقة ، متكافئين معتدلين (ص ٢١ ـ ٢٢) .

ثم انا اقتصرنا ـ بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم ـ الى رهط أربعة ، على أنهم أشعر العرب طبقة ، ثم اختلفوا فيهم بعد . وسنسوق في اختلافهم واتفاقهم ، ونسمي الأربعة . ونذكر الحجة لكل واحد منهم ، وليس تبدئتنا واحدا في الكتاب بحكم له ، ولا بد من مبتدأ ، ونذكر من شعرهم الأبيات التي تكون في الحديث والمعنى (ص ٤٢) .

العرب والشعر :

وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم ، به يأخذون ، واليه يصيرون .

قال ابن سلام : قال ابن عون ، عن ابن سيرين ، قال : قال عمر بن الخطاب كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه . فجاء الاسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر

وروايته . فلما كثر الاسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير ، وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك الى بنى مروان أو صار منه .

قال يونس بن حبيب : قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير .

ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه ، قلة ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد ، اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر . وان لم يكن لهما غيرهن ، فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة ، وان كان ما يروى من الغناء لهما ، فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة . وترى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك لذاك . فما قل كلامهما ، حمل عليهما حمل كثير (ص ٢٢ ـ ٢٤) .

أولية الشعر :

ولم يكن لأوائل العرب من الشعر الا الأبيات يقولها

الرجل في حادثة ، وانما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب بن عبد مناف . وذلك يدل على اسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع » (ص ٢٤) .

وكان أول من قصد القصائد وذكر الوقائع ، المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل ، قتلته بنوشيبان ، وكان اسم المهلهل عديا ، وانما سمي مهلهلا لهلهلة شعره كهلهلة الثوب ، وهو اضطرابه واختلافه ...

وزعمت العرب أنه كان يدعي في شعره ويتكثر في قوله بأكثر من فعله .

وكان شعر الجاهلية في ربيعة : أولهم المهلهل وهو خال امرئ القيس بن حجر الكندي ، والمرقشان ـ والأكبر منهما عم الأصغر ، والأصغر عم طرفة بن العبد . واسم الأكبر عوف بن سعد ، واسم الأصغر عمرو بن حرملة ، وقيل ربيعة بن سفيان ، وسعد بن مالك ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميئة ، والحارث ابن حلزة ، والمتلمس ـ وهو خال طرفة ـ والأعشى والمسيب بن علس .

ثم تحول الشعر في قيس ، فمنهم : النابغة الذبياني ـ وهم يعدون زهير بن أبي سلمى من عبد الله بن غطفان ، وابنه كعبا ، ولبيد ، والنابغة الجعدي ، والحطيئة ، والشماخ وأخوه مزرد ، وخداش بن زهير ثم آل ذلك الى تميم فلم يزل فيهم الى اليوم .

وكان امرؤ القيس بن حجر بعد مهلهل ، ومهلهل

خاله ، وطرفه وعبيد وعمرو بن قميئة والمتلمس في عصر واحد .

فكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره ، ولا يستبهر بالفواحش ، ولا يتهكم في الهجاء ، ومنهم من كان يتعهر ولا يبقي على نفسه ولا يتستر ، منهم امرؤ القيس ، ...

(ص ٣٣ ـ ٣٥)

ضياع الشعر :

قال ابن سلام : لما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار التي قيلت . وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون ، وانما غفل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية ، من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الاشكال .

(ص ٣٩ ـ ٤٠)

وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حجة في عربيته ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى

يستخرج ، ولا مثل يضرب . ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف . وقد تداوله قوم من كتاب الى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء . وليس لأحد — اذ أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على ابطال شيء منه — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي .

وقد اختلف العلماء في بعض الشعر ، كما اختلفت في بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه .

وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم ، كسائر أصناف العلم والصناعات : منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان .

(ص ٥ — ٦)

ثقافة النقاد وعلمهم :

قال محمد : قال خلاد بن يزيد الباهلي لخلف ابن حيان أبي محرز ، وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله :— بأي شيء ترد هذه الأشعار التي تروى ؟ قال له : هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال نعم : قال أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال نعم . قال : فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت .

وقال قائل لخلف : اذا سمعت أنا بالشعر استحسنه فما أبالى ما قلت فيه أنت وأصحابك . قال له : اذا أخذت أنت درهما فاستحسنته ، فقال لك الصراف انه رديء ، هل ينفعك استحسانك له ؟

(ص ٨٠)

نحل الشعر وتهجينه :

وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد فى الأشعار قال ابن سلام : أخبرنى أبو عبيدة ، عن يونس : قدم حماد البصرة على بلال بن أبى برده وهو عليها ، فقال : ما أطرفتنى شيئا ، فعاد اليه فانشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مديح أبى موسى ، فقال : ويحك ! يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروى شعر الحطيئة ؟ ولكن دعها تذهب فى الناس .

قال ابن سلام : أخبرنى أبو عبيدة عن عمر بن سعيد ابن وهب الثقفى قال : كان حماد لى صديقا ملطفا ، فعرض على ما قبله يوما . فقلت له : أمل على قصيدة لا خوالى من سعد بن مالك . فنظر فأملى على :

ان الخليط أجد منتقله
وكذلك زمت غدوة ابله

عهدى بهم فى القلب قد سندوا
تهدى صعاب مطيهم ذلله

وهى لأعشى همدان

وسمعت يونس يقول : « العجب لمن يأخذ عن حماد : كان يكذب ويلحن ويكسر »

(ص ٤٠ - ٤١)

وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه محمد بن اسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن المطلب ابن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسير ، قال الزهرى : لا يزال فى الناس علم ما بقى آل مخرمة ، وكان أكثر علمه بالمغازى والسير وغير ذلك ، فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر ، أوتى به فاحمله ولم يكن ذلك عذرا فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعارا كثيرة . وليس بشعر انما هو كلام مؤلف معقود بقواف . أفلا يرجع الى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف من السنين ، والله تبارك وتعالى يقول : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا » أى لا بقية لهم . وقال أيضا : « وانه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى » ...

(ص ٨ - ٩)

(ب) من الطبقات

« الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية »

وهم أربعة رهط فحول شعراء ، موضعهم مع الأوائل ، وانما أخل بهم قلة شعرهم بأيدى الرواة .

طرفه بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة .

وعبيد بن الأبرص بن جشم بن عامر ، أحد بنى مودان بن أسد بن خزيمة .

وعلقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس بن عبيد بن ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم .

وعدى بن زيد بن حماد بن زيد بن أيوب ، أحد بنى امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم .

فأما طرفه فأشعر الناس واحدة ، وهى قوله :

لخوله أطـــلال ببرقة ثهمـــد

وقفت بها أبكى وأبكى الى الغد

وتليها أخرى مثلها وهى :

أصحوت اليوم أم شـــاقتك هر

ومن الحب جنـــون مستعر

ومن بعد له قصائد حسان جياد .

وعبيد بن الأبرص ، قديم الذكر عظيم الشهرة وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله ؟

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

ولا ندرى ما بعد ذلك .

وعلقمة بن عبدة ، وهو علقمة الفحل ، وعلقمة الخصي من رهط علقمة الفحل ، ولابن عبدة ثلاث روائع جياد ، يفوقهن شعر :

ذهبت من الهجران في كل مذهب
ولم يك حقا كل هذا التجنب

والثانية :

طحا بك قلب في الحسان طروب
بعيد الشباب عصر حان مشيب

الثالثة :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم
أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

حدثنا أبو خليفة ، حدثنا أبو عثمان المازني ، عن الأصمعي ، عن نافع بن نعيم قال : مر رجل من بني مزينة بباب رجل من الأنصار ، وقد كان يتهم بامرأته ، فتمثل :

« هل ما علمت وما استودعت مكتوم

فاستعدى رب البيت عليه عمر ، فقال له عمر : ما أردت ؟ قال : شعرا ! قال : قد كان له موضع غير هذا . ثم أمر به فحد .

ولا شيء بعدهن يذكر .

وعدي بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه وسهل منطقه فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد .

وله أربع قصائد غرر روائع مبرزات ، وله بعدهن شعر حسن ، أولهن ....

(ص ١١٥ ـ ١٦٧)

« طبقة أصحاب المراثي »

وصيرنا أصحاب المراثي بعد العشر طبقات

أولهم متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع ، رثى أخاه مالكا .

والخنساء بنت عمرو بن الحارث بن الشريد بن رياح بن يقظة بن عصية بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثه ، رثت أخويها صخرا ومعاوية .

وأعشى باهلة ـ واسمه عامر بن الحارث بن رياح بن عبد الله بن زيد بن عمرو بن سلامة بن ثعله ابن وائل

بن معن – رثى المنتشر بن وهب بن عجلان ابن سلمه بن كرابة بن هلال بن عمرو بن سلامة بن ثعلبة بن وائل بن معن .

وكعب بن سعد بن عمرو بن عقبة او عتبة بن عوف بن رفاعة أحد بني سالم بن عبيد بن سعد بن جلان بن غنم بن غشي بن أعصر رثى أخاه المغوار .

والمقدم عندنا متمم ن نويره ، ويكنى أبا نهشل رثى أخاه مالكا ، وكان قتله خالد بن الوليد بن المغيرة حين وجهه أبو بكر رضى الله عنه الى أهل الردة . فمن الحديث ما جاء على وجهه ، ومنه ما ذهب معناه علينا ، للاختلاف فيه . وحديث مالك مما اختلف فيه فلم نقف منه على ما نريد ، وقد سمعت فيه أقاويل شتى ، غير أن الذى استقر عندنا أن عمر أنكر قتله ، وقام على خالد فيه وأغلظ له ، وأن أبا بكر صفح عن خالد وقبل تأوله .

وكان مالك رجلا شريفا فارسا شاعرا ، وكانت فيه خيلاء وتقدم ، ذا لمة كبيرة ، وكان يقال له الجفول . وقدم على النبى صلى الله عليه وسلم فيمن قدم من أمثاله من العرب ، فولاه صدقات قومه بنى يربوع ، فلما قبض النبى صلى الله عليه وسلم اضطرب فيها فلم يحمد أمره ، وفرق ما بين يديه من ابل الصدقة ، فكلمه الأقرع بن حابس المجاشعى والقعقاع ابن معبد بن زرارة الدارمى ، فقالا له :

ان لهذا الأمر قائما وطالبا ، فلا تعجل بتفرقة ما في يديك ·
فقال ··· (ص ١٦٩ - ١٧٠) ·

طبقات الاسلام

كل طبقة أربعة رهط متكافئين متعادلين

الطبقة الأول

من فحول الاسلام

جرير بن عطية الخطفى ، واسم الخطفى حذيفة ابن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع · خطف ببيت قاله :

يرفعن للبلى ما أسدفا أعناق جنان وهاما رجفا

وعنقا ، بعد الرسيم ، خطيفا

الفرزدق واسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجيه بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع · وانما سمى الفرزدق لأنه شبه وجهه بالخبزة ، وهى فرزدقة ·

والأخطل ، واسمه غياث ، بن غوث بن الصلت ابن طارقة بن السيحان بن عمرو بن فدوكس بن عمرو ابن مالك بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمر بن غنم بن تغلب · خط له قول كعب بن جعيل له : انك لأخطل يا غلام ؟

وراعي الابل واسمه عبيد بن حصين بن جندل بن قطن بن طويلم بن ربيعة بن عبد الله بن الحارث بن نمير . سمي راعي الابل لكثرة صفته للابل وحسن نعته لها ، فقالوا ما هذا الا راعي الابل ! فلزمته .

فاختلف الناس فيهم أشد الاختلاف وأكثره . وعامة الاختلاف ، أو كله في الثلاثة . ومن خالف في الراعي قليل ، كأنه آخرهم عند العامة .

وسمعت يونس بن حبيب يقول : ما شهدت مشهدا قط ذكر فيه جرير والفرزدق فاجمع أهل ذلك المجلس على أحدهما .

وكان يونس يقدم الفرزدق بغير افراط ، وكان المفضل الراوية يقدمه تقدمة شديدة .

وأخبرني أبو قيس العنبري عن عكرمة بن جرير أن جريرا قال : تبعة الشعر الفرزدق .

وقال ابن دأب ، وسئل عنهما فقال : الفرزدق أشعر عامة ، وجرير أشعر خاصة .

وكان الأشهب بن رميلة يفاخر الفرزدق فكان الفرزدق يذكر فقيما مع بني نهشل ، فاستصدوا عليه زيادا فهرب من زياد . فحدثني جابر بن جندل الفزاري قال : أتى الفرزدق عيسى بن خصيلة السلمي فقال : يا أبا خصيلة ، ان هذا الرجل أخافني وقد لفظني جميع من كنت أرجو

قال : فمرحبا يا أبا فراس . فكان عنده ليالي ثم قال له : انى أريد أن أخرج الى الشام فقال له : ان أقمت ففي الرحب والسعة ، وان شخصت فهذه ناقة أرحبية أمتعك بها وألف درهم . فركب الناقة وخرج من عنده ليلا ، وأرسل معه عيسى بن خصيلة من أجازه من البيوت ، فأصبح وقد جاوز مسيرة ثلاث ، فقال يمدحه ...

(ص ٢٤٩ – ٢٥٢)